الضمير البريطاني

للأستاذ قدري حافظ طوقان

أعلنت مصر في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٥١ إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتي سنة ١٨٩٩ على السودان رفعة رئيس

واعيا ، وأن يجتث الشر من أصوله . لقد رأى المعاهدة تفرض على كل يد قيدا ، وعلى كل عين غطاء ، وعلى كل كتف نيرا ، فألغاها . ورأى الاحتلال يسيمه خسفا ، ويقتله جوعا ، ويرفع على ظهره سوطا ، وأيقن أنه لا يدفع بيد عارية ، وأفواه خاوية ، فهب يدفع كل ذلك عنه ، ثم بدا وفي كفه الخراب ، وفي فيه الناب ، وفي قلبه العزم .

بدا وفي يده المدفع ، وفي جيبه القنبلة ، وفي منطقته الرصاص ، وتحت إبطه اللغم ... !

وزحف إلى هناك .. إلى القتال ... وفي هدوء وسكينة ، راح يشعل اللغم تلو اللغم ، ويستقبل الفزعين من أعدائه بالمدفع ويطارد فلولهم بالقنبلة ... ! يقتحم الشوك ويجتاز الترع ، ويلاقيهم وجها لوجه ، قوة لقوة ، وسلاحا لسلاح . وعنده فوق ذلك الإيمان بالحق ... والإيمان بالنصر ...

وعندهم دون ذلك الإحساس بالتطفل ، والشعور بالحرج والحجة التي سقطت من بين أيديهم ، والفزع الذي وقع في قلوبهم ... !

لم يكن ما يأتيه هذا الشعب اليوم العجب أو غريبه ، قدر ما كان استجابة صادقة لتلك النوازع الأصيلة الموروثة في أعماقه ... ألا فليشهد العالم وليسمع إن رغب عن أن يشهد ، وليعلم إن رغب عن كلا الأمرين ، أن كل مصري يقول اليوم : أنا مصر ... ومصر أنا ... لا ذلة ولا هوان ، ومرحبا بالقوة التي تحاول إرغامي على إنكار هذه الحقيقة ... مرحبا بها ... فالمدفع في يدي ... والقنبلة في جيبي ... والذخيرة في جعبتي ، واللغم تحت إبطي ... والله معي ... والفداء ... أنا ... !

أحمد قاسم أحمد

وزرائها في بيانه الحاسم الجامع في مجلس النواب المصري . ولقد استقبل الناس هذا النبأ بالدهشة والوجوم في انكلترا . وبالسرور والتقدير في الأقطار الشرقية وبعض الأقطار الأوربية والأمريكية المحبة للسلام والديمقراطية ، ففي هذا الإلغاء معنى رائع من معاني الوعي واليقظة ، كما أن لهذا الإلغاء نتائج خطيرة ذات أثر بعيد في حياة الشعوب التي لا تزال تقاسي من المستعمرين والاستعمار ألوانا من الضغط والإرهاق وأنواعا من الظلم والعذاب

في هذا الإلغاء دليل قاطع على رغبة الشعوب الشرقية في التحرر والانطلاق وعلى أنها لم تعد تصبر على الأساليب التي كانت تسير عليها دول الاستعمار في القرن التاسع عشر من ادعاء مسؤولية المحافظة على الأمن والنظام في البلاد المتأخرة ومن انتحال التهمات في عدم الشرق وترقيته ، وعلى أساس هذه التعليلات كان المستعمرون (وفي مقدمتهم بريطانيا) يقاومون الحقوق الوطنية والنهضات القومية

لقد أقدمت مصر على الإلغاء والتخلص من قيود الاستعمار بعد أن صبرت طويلا ، وبعد أن قامت بمحاولات واتصالات متعددة ومفاوضات متكررة ، ولكن الجانب البريطاني — وقد سار بعقلية القرن التاسع عشر — أبى أن يخضع للحق الصراح والحجج الدامغات ؛ كما أبى أن يدرك أن حق الشعوب في الحياة الحرة الكريمة حق مقدس قامت على أساسه مبادئ هيئة الأمم المتحدة ، أقول : لقد أبى الجانب البريطاني أن يخضع وأبى أن يدرك أن الشعوب في القرن العشرين لا تحكم بعقلية القرن التاسع عشر ، ولا بالأساليب الرجعية ، فكان هذا التمرد على الاستعمار وقيوده في الهند وإيران والملايو ومصر ، وكانت هذه الثورات على الظلم والطغيان

لقد استهترت بريطانيا بحقوق الشعوب واستهانت بكرامتهم ولم تقيد نفسها بما توجبه عليها المعاهدات من التزامات وواجبات بل راحت تسير في معاملة مصر على أساس الاستغلال والاستعباد والاستخفاف بالعقول والحقوق

وقد يسأل أحد الناس : ألم يدرك الشعب البريطاني — وقد بلغ شأواً بعيدا في التقدم المادي والثقافي — أن الأساليب

الاستعمارية لم يعد يحتملها أو يصبر عليها أحد ؟ وما هو التعليل لعدم يقظة الضمير البريطاني ولوقوفه جامدا أمام الأساليب التحكمية والاستعمارية التي سارت عليها الحكومات الانكليزية؟ وهل ما يجري في المستعمرات وفي البلاد التي ابتليت بالانتداب يتماشى مع روح العصر وتقدم الأفكار ويقظة الضمائر ؟

إن الشعب الذي يستسيغ مأساة فلسطين وإقامة دولة إسرائيل بعد أن مهدت حكومته لتشريد مليون عربي وسلب أموالهم وحقهم في الحياة في بلادهم ، ويستسيغ المظالم التي صبها الاستعمار البريطاني في الهند وإيران والتي لا يزال يصبها في بلاد العرب والملايو ـ أقول إن هذا الشعب الذي يستسيغ كل ذلك ، ولا يوقف الأساليب الباغية التي تلجأ إليها حكوماته لهو شعب ناقص التربية جامد الضمير

ذلك لأن التربية التي لا تنمي في الشعب روح العدل الشامل وروح الخير العام ووروح النفور من الظلم والاعتداء لهي تربية ناقصة قد طغت عليها المادية والنفعية فأعمت (الشعب) عن الحق والحقائق فضاق أفقه وأصبح لا ينظر إلى القضايا والمشاكل إلا من زاوية مصالحه الخاصة

ومن يدرس مذاهب بعض الفلاسفة الانكليز يتبين له السر في جمود الضمير البريطاني ؛ فمذاهب الفلاسفة الاخلاقية توضح لنا المثل الأعلى الذي كان لهذا الشعب أو ذاك ، ويمكن اتخاذها مقياساً لتقدم الضمير الإنساني لقد برز في انكلترا في القرن التاسع عشر الفيلسوف (جون ستيوارت مل) وهو صاحب مذهب خاص في الأخلاق يطلق عليه مذهب النفعية (يوتيليتريانزم) ويقوم هذا المذهب (أو هذه النظرية الأخلاقية) على اعتبار المنفعة أساسا للأخلاق . وقد أتى (مل) في شرح ذلك على بيان تحليل غريزة حب النفعة وإرجاع الفضائل إليها مستعينا في هذا بعلم النفس والاجتماع . وليس المجال الآن مجال تفصيل هذا البيان ، ولكن يمكن القول أن مذهب (مل) في النفعية لم ينته إلى الغاية التي أرادها له بعض الفلاسفة ، بل جنى على الأخلاق ونزل بها عن مستواها العالي بجعله (المنفعة) أساس كل عمل وإرجاعه الأعمال الأخلاقية إلى بعض الغرائز والقوى النفسية . وعلى هذا تسير الأخلاق على ضوء الغرائز والميول بدلا من أن تضبط الأخلاق وما في الإنسان من غرائز جامحة وميول عنيفة

لقد تأثر الانكليز بهذا المذهب فساروا في أخلاقهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم على أساس (النفعية) وسايروا ميولهم وغرائزهم وكيفوا أخلاقهم عليها ، فكان هذا الطابع الذي تميز به الانكليز على سواهم وهو (مصلحة بريطانيا فوق جميع المصالح) حتى ولو كان في ذلك الاضرار بالناس والاستهتار بحقوق الشعوب والاستهانة بالكرامات

ولهذا لم يعد مجال للدهشة أو العجب من الخلق الإنكليزي ومن تسييره في الطرق المؤدية إلى المصلحة الذاتية أو الخاصة ، ولا من عدم تقدم الضمير البريطاني على الرغم من التقدم الكبير الذي أصابه الانكليز في سائر ميادين الحياة . فسياسة الانكليز الخارجية واتجاهاتهم الخلقية تتحرك كلها في دائرة النفعية والاستغلال . وهم ينظرون إلى حقوق الشعوب الأخرى ومصالحها وإلى الإنسانية من زوايا مصالحهم ومنافعهم . وقد نجحت هذه السياسة وهذا السلوك بعض الوقت في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، ولكن بعد أن تقدم العلم هذا التقدم العجيب وبعد أن استيقظت الشعوب فهبت من غفلتها أصبح من المستحيل على بريطانيا أن تنجح في أساليبها وخططها الاستغلالية

وهذا ما يجب أن يدركه الانكليز حكومة وشعبا

ويقولون إن العقلية البريطانية تمتاز (بالمرونة) ، ولكنها (كما يبدو لي) مرونة بطيئة جامدة لا تساير روح العصر ولا تتحرك في إطار التقدمية . وعلى ذلك فقد فشلت السياسة البريطانية في الشرق في هذه الأيام ، فتتابعت عليها النكسات مما يهدد مصالحها ويؤدي إلى القضاء على نفوذها وهيبتها

قدري حافظ طوقان